المحاضرة السادسة: بعضُ الشّبهات التي طالت القراءات القرآنية والرّدّ عليها

❖ تمهيد

لقد عكف أعداء الإسلام -قديما وحديثا – على إثارة الشُّبه والشّكوك والمطاعن في القرآن الكريم، ولعلّ القراءات القرآنية كانت من أخصب الأراضي التي رآها الطّاعنون مناسبةً لنفث سمومهم، وبذر شرورهم، التي لم يُكتب لها أن تُزهر فضلا على أن تُثمر، إذ تصدّى لها –بفضل الله- العلماء الرّاسخون في العلم، فكشفوا زيفها وزيغها، وبيّنوا بطلانها بالأدلة الدّامغة، وانقلب أصحاب تلك الشُّبه خائبين خاسرين، حائرين بائرين، قال ابن حزم -رحمه الله-: **" فليس هذا اختلافًا، بل هو اتّفاقٌ منّا صحيح... فهي صحيحة، وهي محصورة كلّها مضبوطة معلومة، لا زيادة فيها ولا نقص"** ، وسنورد في هذه المحاضرة جملة من الشّبه التي أثيرت حول القراءات القرآنية، مردفين إيّاها بالردّ الذي يشفي الغليل، ويداوي العليل، إن شاء الله.

❖ عرضٌ لبعض الشّبهات التي طالت القراءات القرآنية والرّدّ عليها

● الشّبهةُ الأولى: عدم تواتر القراءات

يرى هؤلاء أنّ القراءات العشر ليست متواترة، وحجتهم أنها منقولة بأسانيد آحاد، ومنهم من اقتصر على نفي التواتر عن القراءات الثلاث بعد إثبات تواتر القراءات السبع، والزعم بأن القراءات الثلاث إنما هي مشتهرة مستفيضة فقط ولا تصل في ثبوتها إلى درجة التواتر.

● تفنيدُها:

من خلال حدّ التواتر الذي ذكرناه **سلفا**، نجد أنه **متحقّق في قراءات الأئمّة العشرة**؛ فقد رواها معظم الصّحابة عن رسول الله صلّى الله عليه وسلم، ورواها عن الصّحابة التابعون، وأتباع التابعين، فالذين يلونهم، جيلا عن جيل إلى وقتنا هذا، وعليه فإنّ فالقراءات العشر **متواترة جملة وتفصيلا**، وهو الذي عليه **أئمة القراءة والفقه والأصول.**

أمّا الطّعن في **تواتر القراءات الثلاث** فمردود أيضا، فهي ثابتة كالقراءات السبع، لتحقق الشّرط، قال عبد الوهاب بن علي السّبكيّ: **"والقول بأن القراءات الثلاث غير متواترة في غاية السّقوط، ولا يصحّ القول به ممن يعتبر قوله في الدّين".**

كما أنّ قراءات **الأئمة الثلاثة** لا تخرج عن **قراءة السبعة** إلا في حروف يسيرة، وأما أسانيد القراء فهي أسانيد آحاد، لأنه يستحيل إحصاء جميع من قرأ بهذه القراءة أو تلك، فهي قراءات ذائعة في مختلف البلدان وفي عصور متوالية، وليس مراد هذه الأسانيد الحصر بل التوثيق، ومع ذلك فلو جمعت الأسانيد المتداولة بين القراء واستخرج منها أسماء الأئمة الذين قرؤوا بالقراءات في العصور المتعددة لبلغ العدد المطلوب للتواتر وزاد عليه، ذلك أنّ **إضافة القراءة إلى القراء هي إضافة اختيار ودوام ولزوم لا إضافة اختراع ورأي واجتهاد.**

- **الشّبهة الثّانية: يرجع اختلاف القراءات إلى رسم المصحف**

الرسم عند هؤلاء هو أحد أسباب اختلاف أوجه قراءة ألفاظ القرآن، إذ إنّ المصحف كان خاليا من النقط والشكل وطبيعة رسم بعض كلماته بالحذف أو بالزّيادة ما أدى إلى الاختلاف.

- **تفنيدُها:**

الظاهر منذ البداية أنّ هذا الزّعم يردّه الواقع، فاختلاف القراءات مصدره التّلقي عن رسول الله صلّى الله عليه وسلم وليس رسم المصحف، كونهم لم يكونوا يعتمدون على الكتابة أصلا، وحين كتب عثمان المصاحف وأرسلها إلى الأمصار الإسلامية بعث مع كلّ مصحف قارئا ليعلم الناس القراءة الصحيحة، ولو كان جائزا للناس استخراج القراءات المختلفة من الرسم لما احتاج الأمر إرسال القارئ مع المصحف، فمدار اختلاف القراءة الرواية لا الرسم، فالقراءة إنما تؤخذ بالمشافهة والسماع ولا تؤخذ من رسم المصحف وخطه.

- **الشّبهة الثّالثة: جواز القراءة بالمعنى**

وترجع هذه الشبهة عدد من المستشرقين وأتباعهم زاعمين جواز إبدال لفظ مكان آخر إذا كان يؤدي المعنى نفسه. معتمدين على بعض النصوص التي يدل ظاهرها على ذلك.

منها حديث عن ابي الدرداء رضي الله عنه قال: قر أرجل عنده (إن شجرت الزقوم طعام الاثيم) فقال أبو الدرداء قل "طعام الاثيم" فقال الرجل طعام اليتيم، فقال أبو الدرداء قل:" طعام الفاجر"

وحديث مثله عن ابن مسعود حتى قال رضي الله عنه إن الخطأ في القرآن ليس أن تقول: الغفور الرحيم، العزيز الحكيم،إنما الخطأ أن تقرأ بية الرحمة آية العذاب، وآية العذاب آية الرحمة، وأن يزاد في كتاب الله ما ليس فيه."

- **تفنيدُها:**

إن القرآن الكريم لفظ عربي مقصود، فكل لفظة فيه مقصودة لمعنى .فالحذف مقصود، والإثبات

مقصود، والاختصار مقصود، والتطويل مقصود، والحقيقة مقصودة، والمجاز مقصود. ولا تقوم لفظة عربية ـ ولو كانت في الذروة من الفصاحة ـ مقام اللفظة القرآنية. وهذا من أعظم طرائق إعجاز القرآن الكريم. فلو جوزنا القراءة بالمعنى لأزلنا عن القرآن الكريم أعظم خصائصه الإعجازية. وهذا ما لم يقل به أحد من أئمة الإسلام .

ثم لو كانت القراءة بالمعنى حاصلة فعلا لكان بين أيدينا الآن آلاف المصاحف المختلفة نتيجة لذلك، ثم لو كان ذلك كذلك لذهب إعجاز القرآن، الذي هو من أهم مميزاته، فكلّ لفظ فيه مقدَّر في موضعه خير تقدير، ومعبّر أصح تعبير، ولا يمكن أن يسدّ أي لفظ آخر مسدّه.

وأما أثر أبي الدرداء وابن مسعود :فلا حجة فيه؛ لأن ذلك الرجل كان أعجميًّا. والعجم لا يستطيعون ضبط ألفاظ العرب، فربما حرفوها إلى لفظ مغاير يفسد المعنى. كما حدث هنا؛ حيث حرف "الأثيم" إلى اليتيم .فحفاظا على اللفظ من التحريف إلى الضد أرشده إلى المعنى؛ ليس تغييرا للفظ القرآني، وإنما تفسير له؛ ليكون ذلك التفسير وسيلة للنطق بالصواب .

قال القرطبي: "ولا حجة في هذا للجهال من أهل الزيغ، أنه يجوز إبدال الحرف من القرآن بغيره، لأن ذلك إنما كان من عبد الله تقريبا للمتعلم، وتوطئة منه له للرجوع إلى الصواب، واستعمال الحق والتكلم بالحرف على إنزال الله وحكاية رسول الله صلى الله عليه وسلم ."

- **الشّبهة الرّابعة: تناقض معنى القراءات**

زعم المستشرق **(جولد زيهر)** وجود تناقض بين القراءات في المعنى، واستدلّ على ذلك (لم يجد غيرها) بالقراءتين المتناقضتين -حسبه- في أوّل سورة الرّوم، أولاهما: ﴿ غُلِبَتِ ﴾ الرُّومُ بالبناء للمجهول، و ﴿ سَيَغْلِبُونَ ﴾ بالبناء للفاعل والقراءة، الثانية ببناء ﴿ غَلَبَتِ ﴾ للفاعل و ﴿ سَيُغْلَبُونَ ﴾ للمفعول.

- **تفنيدُها:**

إنّ القراءة الأولى التي بُني فيها الفعلُ للمجهول ﴿ غُلِبَتِ ﴾ هي **قراءة متواترة صحيحة**، أمّا القراءة الثّانية التي بُني فيها الفعلُ للمعلوم ﴿ غَلَبَتِ ﴾ فهي **قراءة شاذّة**، والقراءة الشاذة **لا تقوى** على معارضة القراءة الصّحيحة ولا تصلح لمقابلتها، ومن المعلوم أنّ القراءة الشاذة ليست قرآنا، ولا يجوز قراءتها على أنها منه، وإنّما تروى للاحتجاج بها في الفقه واللغة أو للعلم بها، لذا فلا ينبغي أن يقال إنّ في هذا الموضع قراءتين، بل هي قراءة واحدة صحيحة والقراءة الأخرى لا تصحّ ولا تعدّ قراءة .

ولو سلّمنا جدلا بصحتها، لن يمنعنا هذا أن نجمع بين القراءتين؛ **فالقراءة الأولى** تتحدث عن انتصار الفرس على الرّوم، وتبشّر بانتصار الرّوم على الفرس خلال بضع سنين، وأنّ ذلك النّصر المبشّر به سيترافق مع نصر آخر للمسلمين على المشركين، وهذا ما حصل فقد تزامن انتصار الرّوم على الفرس، مع غزوة بدر التي انتصر فيها المسلمون على المشركين.

وأمّا القراءة الثانية فتخبر أنّ الرّوم انتصروا على سواد الشام وتبشر المسلمين بالانتصار على الرّوم بعد ذلك ببضع سنين، وقد غزا المسلمون الرّوم في السّنة التاسعة من نزول الآية وفتحوا بعض بلادهم.

فهذا المعنى الذي أفادته هذه القراءة الصّحيحةُ لا يتناقض مع المعنى الذي أفادته القراءة الشّاذة.

- **الشّبهة الخامسة: مخالفة بعض القراءات قواعد اللغة العربية**

ومن هذه الشبهات أيضا :شبهات تتعلق بأعاريب بعض القراءات؛ حيث تخالف بعُض القراءات المشهورَ من لغة العرب، أو تأتي على بعض الوجوه الضعيفة في العربيَّه. وقد سبق أن قلنا: إن الوجه الضعيف في لغة العرب، يتقوّى بوروده في القرآن الكريم . وأذكر من هذه القراءات عدة أمثلةٍ :

الأول: طعنهم في قراءة حمزة (واتّقوا الله الذي تساءلون به والأرحام) [النساء 1]

الثاني :طعنهم في قراءة ابن عامر: (وكذلك زُيِّن لكثير من المشركين قَتلُ أَولادَهم شركائِهم) [الأنعام 137]

الثالث: طعنهم في قراءة (إنَّ هذان لساحران) [طه 63]

الرابع: طعنهم في آيات أخرى كقوله تعالى: (والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضرّاء

وحين البأس) البقرة 177

وقوله تعالى: (والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة) [النساء 162]

والرد على هذه الشبهات إجمالا نقول:

أولا لابد أن نعلم أن القراءة سنة متبعة يأخذها الآخر عن الأول لا يحيد عنها القارئ ولو خالفت مشهور كلام العرب وهذا القول والفهم متواتر عن الصحابة والتابعين والسلف الصالح ومعنى ذلك أنها تعتمد على النقل الصحيح الموصول إلى النبي صلى الله عليه وسلم

وقد شرح البيهقي في سننه هذه العبارة بقوله(:أراد :اتباع من قبلنا في الحروف سنة متبعة لا يجوز مخالفة المصحف الذي هو إمام، ولا مخالفة القراءات التي هي مشهورة، وإن كان غير ذلك سائغاً في اللغة أو أظهر منها .)

وقال النووي أيضاً في شرحها: (حروف القراءة سنة متبعة: أي :طريق يتبع ولا يغيّر)

- **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه قال:(قراءة القرآن **سنة** يأخذها الآخر عن الأول)
- **زيد بن ثابت رضي الله عنه** قال: (**القراءة سنة**) ، وفي رواية(:**القراءة سنة متبعة** .) وفي رواية : (**القراءة سنة من السنن**؛ فاقرؤوا القرآن كما أُقرئتموه، .) وفي رواية (:القراءة **سنة**، لا تخالف الناس برأيك .)
- -**أبو عمرو بن العلاء** عن الأصمعي :قال لي أبو عمرو بن العلاء(:للو تهيّأ أن أفرغ ما في صدري من العلم في صدرك لفعلت، ولقد حفظت في علم القرآن أشياء لو كتبت ما قدر الأعمش على حملها، ولولا أن **ليس لي أن أقرأ إلا بما قرئ** لقرأت حرف كذا، وذكر حروفاً)
- مالك بن أنس سأله رجل عراقي فقال: لم يا أبا عبد الله تقرؤون (ولِئ نعجة) بسكون الياء وتقرؤون (ولِيَ دين) بفتح الياء فقال له مالك (:ويلكم يا أهل العراق، لم يبق لكم من العلم إلا لم وكيف، **القراءة سنة تؤخذ من أفواه الرجال**، فكن متّبعاً ولا تكن مبتدعاً)

ثم إن العرب من قر يش، الذين فتنوا بالكلمة وسحرها وبلغوا قمة الفصاحة والبيان، كانوا يتلمسون ثغرة يتسللون منها إلى الطعن في القرآن الكريم، فلو كان ما طعن به الطاعنون صحيحا، لم يكن ليغيب عن أذهان القرشيين .بل على العكس دُفِعوا من داخلهم دفعا إلى الإعجاب به، والاعتراف بفصاحة أسلوبه، وجمال تراكيبه، وبديع سبكه وإحكامه، وطرائق إعجازه التي لا حصر له.

وللجواب التفصيلي أقول :

أولًا: قراءةُ حمزةَ :(وَاتَّقُوا اللّهَ الذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالْأَ رْحَا مِ (بخفض الْأَ رْحَا مِ.(عطفًا على الضمير المَّتصل وهو الهاء المجرور بِالياء، في به . فمذهب نحاة البصرة :أنه لا يجوز العطف على الضمير المتصل المخفوض، من غير إعادة الخافض مع المعطوف عليه. وهذا هو الأكثر ورودا في القران الكريم. كما في قوله ـ تعالى ـ (وَقَا لَ لَهَا وللأرض)

أما مذهب نحاة ال كوفة :فأجازوا ذلك، واحتجوا لمذهبهم بعدد من الشواهد الشعرية والنثرية .

ثانيا: قراءة ابن عامر: (وَكَذلِ كَ زُيِّنَ لِكَثِيرٍ مِن الْمُشْرِ كِينَ قَتْل َأْولادَهُم شُرَكائِهِم) [الأنعام: 137] .

فقد فصل بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول، ومذهب نحاة البصرة عدم جوازه، إلا للضرورة. وخولفوا في ذلك .

ويؤيد من خالف نحاة البصرة، عددٌ من الشواهد، منها :ـ قول الشاعر :

حملت إليه من لساني حديقة. سقاها الحجى سقي الرياضَ السّحائبِ

وقد ذكر في هذا الموضع شواهد كثيرة تدل على جواز ذلك في لغة العرب. وقد انبرى العلماء للرد على من طعن في هذه القراءة ردا شديدا لم يتركوا فيه لمعترض مقالا.

ثالثا: قراءة: (إنّ هَذَانِ لَسَاحرَانِ) بتشديد إنّ، وبالألف في هَذَانِ، وهي قراءة نافع وابن عامر وشعبة وحمزة والكسائي وأبي جعفر ويعقوب وخلف العاشر .

ومعلومٌ عمل (إ َّن)، وأنها تنصب اسمها وترفع الخبر. وقد جاء الطرفان بالألف الدالة على الرفع وبيان ذلك من وجوه :ـ أنها جاءت على لغة من يلُزم المثنى الألف رفعا ونصبا وجرا. وهم : بلحارث بن كعب، وخثعم، وزبيد، وكنانة. يقولون: جاء الزيدان، ورأيت الزيدان، ومررت بالزيدان.

ومن شواهدها في العربية قول الشاعر:

إن أباها وأبا أباها قد بلغا في المجد غايتاها

واما عطف المنصوب على المرفوع في (والصابرين) فإنه في الحقيقة عطف على الاختصاص بالمدح لتعظيم الصفة وإعطائها فضل مزية والتقدير وأخص بالمدح الصابرين كقول القائل (نحن العربَ أسخى من بذل)

وسيأتي تفصيل كل ذلك في درس التّوجيه النّحويّ للقراءات القرآنية لاحقا إن شاء الله.